﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 176]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ مُوهمًا لِمَن لم ترسخْ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مُستقلٌّ في الإغواءِ؛ نفى ذلك غيرةً على هذا المقامِ في مَظهَرِ العظمةِ، فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾[1]، ولكنَّهُ "ينحرفُ عن الهدى ليتَّبعَ الهوى، فلاحقَهُ الشَّيطانُ، وتسلَّطَ عليه بإغوائِهِ، فصارَ في زُمرةِ الضَّالِّين"[2].

نفيُ استقلالِ الشَّيطانِ بالإغواءِ دونَ هوى النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾: شرَّفناهُ، ورَفَعَ الشَّيء يرفعهُ رَفْعًا، يقال للأَجسام الموضوعة؛ إذا أَعْلَيْتَها عن مَقرِّها، وتارةً في البناءِ؛ إذا طوَّلتَهُ، وتارة في الذِّكر؛ إذا نوَّهتَهُ[3]، وتارةً في المنزلةِ؛ إذا شرَّفتَها[4]، وأصل (رفع) يدُلُّ على خِلافِ الوَضعِ[5]، كالتَّرفيع والارتفاع، والمعنى هُنا: فَضَّلْناهُ، وشرَّفناه، ورفعنا منزلته بالآيات[6].

2) ﴿أَخْلَدَ﴾: اطمأنَّ إليها، ولَزِمَها أطالَ بها الإقامة[7]، أو ركَن إلى الدُّنيا، وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، وأصلُ (خلد): يدلُّ على

(1) نظم الدّرر للبقاعيّ: 159/8.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 235.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 92/3.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 200، وحسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 184/4.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(6) الثّعلبي، الكشف والبيان: 308/4.
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: 261/1.

الثَّباتِ والمُلازمةِ[1]، والمعنى هُنا: اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا، ولَزِمَها، وتقاعَس[2]، وقيل: "أخلدَ إلى الأرضِ إخلادًا؛ إذا ألصقَ بها نفسه، هكذا فسَّرَ أبو عبيدةَ قولَهُ ﷻ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ إذا لَصِقَ بها"[3].

3) ﴿تَحْمِلْ﴾: تَزجُرْهُ، أو تَطرُدْه، يُقَالُ: يقالُ: حَمَلَ فلانٌ على القوم حملَةً شعواءَ أوحملةً منكرةً، فهو مُشتَقٌّ مِنَ الحَملِ الَّذي هو الهجومُ على أحدٍ لقِتالِه، وأَصلُ (حمل): يَدُلُّ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ[4]، والمعنى هنا: إنْ تُطارِدْه وتُهاجِمْه[5].

4) ﴿يَلْهَثْ﴾، أي: يُخرجْ لِسانَه من حرٍّ أو عطَشٍ، يُقال: لَهَثَ الكلبُ لهثًا ولُهاثًا؛ إذا دلِع لسانُه من شِدَّةِ العَطَشِ[6]، واللَّهَثُ يُقال للإعياءِ وللعَطشِ جميعًا[7]، والمعنى هُنا: كمثلِ الكلبِ الَّذي هذه حالتهُ؛ لأنَّك إذا حَملت على الكلب؛ نَبَح وولَّى هاربًا، وإنْ تركته؛ شَدَّ عليك ونَبَحَ، فيُتْعِبْ نفسَه مُقبِلًا عليك ومدبرًا عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللِّسان[8].

5) ﴿فَٱقْصُصِ﴾: أعلِمْ وأخبِرْ، يُقال: قصَّ علَيْهِ الخَبَرَ قَصًّا وقَصَصًا: أَعْلَمَه بِهِ، وأَخْبَرَه، وَمِنْه: قَصَّ الرُّؤْيَا[9]، وأصل (قصَّ) يدلُّ على تَتَبُّع الشَّيءِ، ومن ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ؛ إذا تَتَبَّعْتَهُ، ومن هذا البابِ القِصَّةُ والقصصُ، كلُّ ذلك يُتَتَبَّعُ، فيذكرُ[10]، والمعنى هُنا: اقرأ عليهم القرآنَ، وأعلِمْهم بما فيه من ضربِ الأمثالِ والعبر، فإذا تفكَّروا؛ عَلِمُوا، وإذا عَلِمُوا؛ عَمِلوا[11].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 174، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 60، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 207/2، والرّاغب، المفردات، ص: 292، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121، والتّبيان لابن الهائم، ص: 212، والكليّات للكفويّ، ص: 65.

(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 60.

(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خلد).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 175، وابن فارس، مقاييس اللغة: 106/2، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 178/9.

(6) نشوان الحميري، شمس العلوم: (لهث)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 298/4.

(7) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 508، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 214/5، والرّاغب، المفردات، ص: 748، والتّبيان لابن الهائم، ص: 213، والكليّات للكفويّ، ص: 994.

(8) القرطبي، جامع البيان: 322/7، والشوكاني، فتح القدير: 303/2.

(9) الزّبيديّ، تاج العروس: 98/18.

(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 101/6، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قص).

(11) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 568/1، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 309.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العبرةُ في تمثيلِ الحريصِ على الدُّنيا وشهواتِها كالكلبِ في لهثِهِ الدَّائِمِ

ولو شِئْنا أن نرفعَ قَدرَهُ إلى منازلِ الأبرارِ، بما آتيناهُ من الآياتِ؛ لفعلنا، ولكنَّه تَعَلَّق بالأرض، ورَكَنَ إلى الدُّنيا، واتَّبع هواهُ، وآثر لَذَّاتِه وشهواتِه على الآخرةِ؛ فمَثَلُهُ في شدَّة الحِرص على الدُّنيا كمثَلِ الكلبِ، لا يزالُ لاهثًا في كلِّ حالٍ، إن كان رابضًا لَهَثَ، وإن طُرِدَ لَهَثَ، ذلك المثلُ المذكور مَثَلُ القوم الضَّالينَ بتكذيبهم بآياتنا، فاقصصْ - أيُّها الرَّسول - أخبارَ الأمم الماضيةِ عليهم، رجاء أن يتفكَّروا، فينزجروا عمَّا هُمْ فيه من التَّكذيبِ والضَّلالِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

بيانُ مناطِ ما ذُكِرَ من انسلاخِهِ من الآياتِ، ووقوعِهِ في مهاوي الغِوايات

الواو في ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ حرفُ استئنافٍ، كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ مناطِ ما ذُكِرَ من انسلاخِهِ من الآياتِ، ووقوعِهِ في مهاوي الغِوايةِ، والضَّمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ يعودُ إلى الشَّخْصِ المعبَّرِ عنه بالاسمِ الموصول الَّذي[2].

دلالةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾:

وقوعُ المشيئةِ شرطًا وكَوْنُ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ

ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ، أي: ولو شِئْنا رفعه ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازلِ الأبرار، بسببِ تلك الآياتِ والعمل بما فيها[3]، وقدِ اصطفى النَّظمُ هذا السَّنَنَ اللُّغويَّ اتِّساقًا مع عدمِ حصول الرَّفعِ في الواقع، فعبَّر بما يَجيءُ كذلك غالبًا من النَّصِّ تلاؤمًا مع الغيابِ من الواقعِ.

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 667/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 106/5، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 436/5.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 292/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 106/5، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين: 574/1.

دلالةُ (لو) الشَّرطيَّةِ في: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

من يرفعِ اللهُ؛ فلا خافضَ له، ومن يخفضْ؛ فلا رافعَ لهُ

كلمةُ (لو) تدلُّ على انتفاءِ الشَّيءِ لانتفاءِ غيرِه، وأفادَ الكلام: إنَّا ما رفعْنا درجَتَهُ لعدم ملازمتِه العملَ، بمقتضى الآياتِ؛ وملازمةُ العملِ لمّا كانت مسبَّبةً عن المشيئةِ؛ كان عدمُ الملازمةِ دليلًا على انتفاءِ سببِه الَّذي هو المشيئةُ، فلزمَ أن يكونَ انتفاءُ الرَّفعِ لانتفاءِ المشيئةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ والكبرياءِ في ﴿شِئْنَا﴾ و﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾:

تعظيمٌ للمشيئةِ وتعليمٌ للأدبِ معهُ ﷻ

قولُهُ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾، أي: على ما لنا من العظمةِ تعظيمًا لمشيئتِه سبحانه ورفعتِه، فلو شاءَ اللهُ لهُ التَّوفيقَ، وعصمَهُ من كيدِ الشَّيطانِ وفتنته، فلم ينسلخْ عنها؛ وهذه عِبْرةٌ للموفَّقين ليعلموا فضلَ اللهِ عليهم في توفيقِهم، فالمعنى: ولو شئْنا؛ لزادَ في العملِ بما آتيناهُ من الآيات، فلرفعَهُ اللهُ بعلمِه[2]؛ وفي هذا التَّعبيرِ تَعليمٌ للأدَبِ في إسنادِ الخَيرِ إلى اللهِ، والشَّرِّ إلى غَيرِه، وإن كان الكُلُّ خَلْقَهُ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المشيئةِ في قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

بيانُ أنَّ من قصمتْهُ السَّوابقُ؛ لم تُنعِشْهُ اللَّواحِقُ

علَّق ربُّنا ﷻ الأمرَ بالمشيئةِ، تنبيهًا على أنَّها هي السَّببُ الحقيقيُّ، وأنَّ ما لم يَشأْهُ سبحانه لا يكونُ، وكان التَّقديرُ: ولكنَّا لم نشأ ذلك، وشِئْنا له الكفرَ؛ ومشيئتُه سبحانه مُطلقةٌ، ولا رادَّ لمشيئته، ولا معقِّبَ لحكمِه[4]، وبمقتضى مشيئتِه يُعَذِّبُ المُذْنِبَ بعدله، ويُثيبُ الطَّائعَ بفضلِه، وله سبحانه مُطلقُ الإرادةِ، فهو عزيزٌ، وحكيمٌ في كلِّ فِعْلٍ[5]، فمَن ساعدته المشيئةُ بالسَّعادةِ الأزليَّة، لم تلحقْهُ الشَّقاوة الأبديَّة، ولكن من قَصَمَتْهُ السَّوابق، لم تُنْعِشْهُ اللَّواحِقُ[6].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 404/15، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 332/4.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 159/8.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 152/3.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4457/7.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 587/1.

بلاغةُ الاستعارةِ في جوابِ الشَّرطِ ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾:

تصويرُ كمالِ النَّفسِ بالتَّرقِّي والارتفاعِ، مبالغةٌ في الوصفِ

الرِّفعةُ في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، مُستعارةٌ لكمالِ النَّفسِ وزكائها؛ لأنَّ الصِّفاتِ الحميدةَ، تُخَيِّل صاحبها مرتفعًا على من دونِه، بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، أي: لو شئنا؛ لاكتسبَ بعملِه بالآياتِ فَضْلًا وزكاءً وتميُّزًا بالفضلِ، فمعنى لرفعناه: ليسَّرنا له العملَ بها الَّذي يشرفُ به[1]، وقد حوَّلتِ الاستعارةُ المعنى المعقولَ محسوسًا.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾:

الإشارةُ إلى العملِ بالآياتِ، وأنَّه سببُ الرِّفعةِ

والباءُ في ﴿بِهَا﴾ بالعملِ بها[2]، والرِّفعةُ عند اللهِ تعالى ليست بمجرَّدِ العلمِ - فإنَّ هذا كان من العُلَماءِ - وإنَّما هي باتِّباعِ الحَقِّ وإيثارِه، وقَصدِ مرضاةِ اللهِ تعالى، فإنَّ هذا كان من أعلمِ أهلِ زَمانِه، ولم يرفَعْهُ اللهُ بعلمِه، ولم ينفَعْهُ بِه، وفي الآيةِ أنَّه هو سبحانه الَّذي يرفَعُ عَبْدَه - إذا شاء - بما آتاهُ اللهُ من العِلمِ، وإنْ لم يرفَعْهُ اللهُ، فهو موضوعٌ لا يرفَعُ أحدٌ به رأسًا، فإنَّه سبحانه هو الخافضُ الرَّافعُ، وقد خَفَضَه اللهُ سبحانه ولم يَرْفَعْهُ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾:

تمثيلٌ لحالِ المتلبِّسِ بالخلودِ إلى الأرضِ بالسَّاقِطِ من علوٍّ إلى سفولٍ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فيه تمثيلٌ لحالِ المتلبِّسِ بالنَّقائصِ والكُفرِ، بعد الإيمانِ والتَّقوى بحالِ مَن كان مُرتفعًا عن الأرضِ، فنزَلَ من اعتلاءٍ إلى أسفَلَ، ونزَل بطبعِه إليها، فكانت نفسُه أرضيَّةً سفليَّةً، لا سماويَّةً علويَّةً، وبحسبِ ما يخلدُ العبدُ إلى الأرضِ يهبطُ من السَّماءِ[4]، فبذِكرِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عُلِمَ أنَّ الإخلادَ هُنا ركونٌ إلى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 321/7، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 404/15، ومحمد جمال الدّين القاسميّ، محاسن التأويل: 222/5.
(3) ابن القيم، إعلام الموقّعين: 129/1.
(4) ابن القيم، روضة المحبّين، ص: 194.

السَّفَلِ، أي: تلبُّسٌ بالنَّقائصِ والمفاسدِ[1]. وهذه الآيةُ من أشَدِّ الآيِ على أصحابِ العِلمِ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنَّه آتاهُ آياتِه، فاستوجَبَ بالسُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّباعِ الهوى، تغييرَ النِّعمةِ عليه، والانسلاخَ عنها؛ ومَنِ الَّذي سَلِمَ من هاتين الخلَّتين، إلَّا مَن عَصَمَهُ اللهُ[2].

دلالةُ الاستدراكِ بعد المشيئةِ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ المشيئةَ سَبَبٌ لفعلِهِ الرَّافعِ، وأنَّ عدمَهُ دليلُ عَدَمِها

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ علَّق ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ بمشيئةِ اللهِ تعالى ثُمَّ استدرك عنه بفعل العبدِ، تنبيهًا على أنَّ المشيئةَ سَبَبٌ لفعلِهِ الموجِبِ لِرَفْعِه، وأنَّ عدمَهُ دليلُ عَدَمِها دلالة انتفاءِ المُسَبَّبِ على انتفاءِ سَبَبِه، وأنَّ السَّببَ الحقيقيَّ هو المشيئةُ، وأنَّ ما نُشاهِدُهُ من الأسبابِ وسائطُ معتبرةٌ في حصولِ المسبَّبِ من حيثُ إنَّ المشيئةَ تعلَّقت به كذلك، وكان من حقِّهِ أن يقولَ، ولكنَّهُ أعرضَ عنها، فأوقعَ موقعَهُ ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فجاءَ الاستدراكُ هُنا تَنبيهًا على السَّببِ الَّذي لأجْلِه، لم يُرفَعْ، ولم يُشرَّفْ، كما فُعِل بغيرِه ممَّن أُوتِي الهُدَى فآثَرَه واتَّبعَه[3]، فلا يغترَّ أحدٌ بما أوتِيَ من المعارفِ، وما حازَ من المفاخرِ واللَّطائفِ، فإنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ[4].

دلالةُ المذهبِ الكلاميِّ في قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾:

المقدِّماتُ الصَّحيحةُ تُفضي إلى نتائجَ قاطعةٍ لباطلِ كلِّ لجوجٍ

المذهبُ الكلاميُّ[5] هو احتجاجُ المتكلِّمِ على ما يريدُ إثباتَهُ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 177/9.
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 468/9.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 223/5.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 160/8.
(5) المذهب الكلاميّ: "هو أن يورد المتكلِّم على صحَّةِ دعواه حُجَّة قاطعة مسلَّمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب، كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]، واللَّازم وهو الفسادُ باطل، فكذا الملزوم وهو تعدُّد الآلهة باطلٌ، وليس أدلُّ على ذلك من الحقيقة والواقع، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحجّ: 5]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، أي: وكلٌّ ما هو أهون عليه، فهو وأدخل تحت الإمكان، فالإعادةُ ممكنةٌ، وسُمِّيَ هذا النَّوع (بالمذهب الكلاميِّ)؛ لأنَّه جاء على طريقة (علم الكلام والتّوحيد)، وهو عبارة عن إثباتِ (أصول الدّين) بالبراهين العقليَّة القاطعة. يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 305.

بحجَّةٍ تقطعُ المعاندَ، وتفلُّ سلاحَ المكابرِ المتعنِّت، على طريقةِ علماءِ الكلام، ومنه منطقيٌّ تُستنتج فيه النَّتائجُ من المقدِّمات الصَّادقة، والآيةُ المقصودةُ بهذا الفنِّ هنا، هي قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، وترتيبُ المقدِّمتين في هذه الكلماتِ، والنَّتيجةُ أنَّا نقول: (ما شاء اللّٰهُ كان، وما لم يشأْ؛ لم يكن، ولو شاءَ اللّٰهُ؛ رفع (بلعام بن باعوراء) المقصودَ بهذه الآيةِ؛ فقد بعثَهُ اللّٰهُ إلى ملكِ مدين؛ ليدعوهُ إلى الإيمانِ، فأعطاهُ، وأقطعَهُ، فاتَّبع دينَهُ، وتركَ دين موسى)، ففيهِ نزلت هذهِ الآيةُ وما بعدها[1]، وهي تبيِّن عن انسلاخٍ عقائديٍّ، كان فيه هذا الموصوف، قد أضلَّهُ اللّٰهُ على علمٍ، فانسلخَ من الهدى، وأتبعهُ الشَّيطان، وأطاع الهوى حين غوى، فكان عاقبةُ أمرهِ خسرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾:

الإشـــارةُ إلى المبالغةِ في اتِّباع الهوى الحاملِ على البعدِ عن الحقِّ

قولهُ: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ أي: اتِّباعًا شديدًا[2] في إيثار الدُّنيا واسترضاء قومِه[3]؛ مُبالغةً وتنبيهًا على ما حَمَله عليه، وأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[4]، وهو لم يَسْمُ بعلمهِ وتقواهُ، "ولكنَّهُ آثرَ الدُّنيا الدَّنيَّةَ على المنازل السَّنيَّة، أو الضَّعةَ والسَّفالةَ على الرِّفعة والجلالة، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، مُعرضًا عن تلك الآياتِ الجليلةِ، فانحطَّ أبلغَ انحطاطٍ، وارتدَّ أسفلَ سافلين"[5].

وقيل: إنَّ ابن المعتز قال: لا أعلم ذلك في القرآن، أعني: المذهب الكلامي، وليس عدم علمه مانعًا عِلْمَ غيره، ورد في إعراب القرآن وبيانه: "المذهب الكلامي: هذه التسمية كما ذكر ابن المعتز في كتابه وزعم الجاحظ أنَّه لا يوجد منه شيء في القرآن، والكتاب الكريم مشحون به". ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 497/3، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 160/8.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 496/3.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 159/8.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 42/3.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 42/3.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 293/3.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾:

تـصـويـرُ حـالـةِ ميلهِ واختيارِهِ الـبـاطـلَ، بمن اتَّبعَ شيئًا ولزمَهُ

واتِّباعُ الهوى ترجيحُ ما يحسُن لدى النَّفسِ من النَّقائصِ المحبوبةِ على ما يدعو إليه الحقُّ والرُّشد، فالاتِّباع مُستعارٌ للاختيار والميل، والهوى شاعَ في المحبَّة المذمومةِ الخاسرة عاقبتها، وقد تفرَّع على هذه الحالةِ تمثيلُهُ بالكلبِ اللَّاهث؛ لأنَّ اتِّصافَهُ بالحالةِ الَّتي صيَّرته شبيهًا بحال الكلب اللَّاهثِ تَفَرَّعَ على إخلادِهِ إلى الأرضِ واتِّباعِ هواهُ، بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، فالكلامُ في قوَّةِ أن يُقالَ: ولكنَّه أخلدَ إلى الأرضِ، فصار في شقاءٍ وعنادٍ، كمثلِ الكلب[1].

بَلاغَةُ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ في: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾:

حـيـنـمـا يـكـونُ القبحُ عـادةً، لا يـزجـرُ عـنـهُ علمٌ بِهِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾، المرادُ بهذا المثلِ: أنَّ من لم يزجرْهُ علمُهُ عن القَبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً له، ولم يؤثِّرْ فيه علمُهُ شيئًا، فيصيرُ حالُهُ كحال الكلبِ اللَّاهث، فإنَّهُ إن طُرِدَ؛ لهثَ، وإن تُركَ؛ لهث، فالحالتان عنده سواءٌ، وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعها، فكذلكَ من يرتكبُ القبائحَ مع جهلِهِ ومع علمِهِ، فلا يؤثِّر علمُهُ شيئًا، وكذلك مثل من لا يرتدعُ عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيره، فإنَّ فعلَ القبيح يصيرُ عادةً، ولا ينزجرُ عنه بوعظ ولا تأديب ولا تعليم، بل هو متَّبعٌ للهوى على كلِّ حالٍ، فهذا حالُ كلِّ من اتَّبع هواهُ، ولم ينزجر عنهُ بوعظٍ ولا غيرِهِ، وسواءٌ كان الهوى المتَّبع داعيًا إلى شهوةٍ حسِّيَّةٍ، كالزِّنى والسَّرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شبهةٍ مضلَّةٍ في الدِّين، وأشدُّ ذلك: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مُضلَّةٍ، ثُمَّ من اتَّبع هواهُ في غضبٍ وكِبْرٍ وحقدٍ وحسدٍ، ثُمَّ مَن اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسّيَّةٍ[2]، وقد "شبَّهَ الهيئةَ المنتزعةَ ممَّا لحقَهُ بعد الانسلاخِ من سوءِ الحالِ، واضطرابِ القلبِ، ودوامِ القلقِ، بالهيئةِ المنتزعةِ ممَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 177/9.
(2) تفسير ابن رجب الحنبليّ: 88/1، 89.

بيَّنَ من حالِ الكلبِ في عدمِ الاستراحةِ في حالٍ من الأحوالِ، أو في مطلقِ الحالةِ الجنسيَّةِ ووجهُ الشَّبهِ فيه منتزعٌ من عدَّةِ أمورٍ"[1]، وفي تَشبيهِ مَن آثَرَ الدُّنيا وعاجِلَها على اللهِ والدَّارِ الآخرةِ - مع وُفورِ علمِه - بالكَلْبِ في لَهَثِه؛ سِرٌّ بديعٌ، وهو: أنَّ الَّذي حالُه ما ذَكَرَه اللهُ من انسلاخِه من آياتِه، واتِّباعِه هواه - إنَّما كان لشِدَّةِ لَهَفِه على الدُّنيا؛ لانقطاعِ قَلْبِه عن اللهِ والدَّارِ الآخرةِ، فهو شديدُ اللَّهَفِ عليها، ولهَفُهُ نظيرُ لَهَثِ الكَلْبِ الدَّائمِ في حالِ إزعاجِه وتَرْكِه[2].

سرُّ التَّعبيرِ عن وصفِ سفالةِ المكذِّب بتشبيهِهِ بالكلبِ:

نقْلُ المعقولِ من أحـوالِ المـكـذِّبِ إلى المحسوسِ يجعلُهُ صورةً بعدَ معنًى

بَيَّنَ النَّظمُ الكريمُ حالَ المكذِّبِ بآياتِ اللهِ، والمتَّبعِ لهواهُ، بالإيجازِ المعجزِ من عدَّةِ وجوهٍ: أوَّلًا: أنَّهُ سبحانه أخبَرَ عن خِسَّةِ همَّتِه، وأنَّه اختارَ الأسفَلَ الأدنى على الأشرَفِ الأعلى. ثانيًا: أنَّ اختيارَهُ للأدنى لم يكُنْ عن خاطرٍ وحديثِ نَفْسٍ، ولكنَّه كانَ عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ على الدَّوامِ، وعبَّرَ عن مَيلِه إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرضِ؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها، وما يُستخرَجُ منها من الزِّينةِ والمَتاعِ. ثالثًا: أنَّه رغِبَ عن هُداه، واتَّبَعَ هواه، فجَعلَ هواهُ إمامًا له، يقتَدي به ويتَّبِعُه. رابعًا: أنَّه شبَّهَه بالكَلبِ الَّذي هو أخَسُّ الحيواناتِ همَّةً، وأسقَطُها نَفْسًا وأبخَلُها، وأشَدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا. خامسًا: أنَّه شَبَّه لهَثَه على الدُّنيا وعدَمَ صَبْرِه عنها، وجَزَعَهُ لفَقْدِها وحِرصَه على تحصيلِها، بلَهَثِ الكَلْبِ في حالتَي ترْكِه، والحَمْلِ عليه بالطَّردِ، وهكذا هذا، إن تُرِكَ؛ فهو لَهْثانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ؛ فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُه في كلِّ حالٍ، كلَهَثِ الكَلْبِ، وهذا التَّمثيلُ لم يقَعْ بكلِّ كَلْبٍ، وإنَّما وقعَ بالكَلْبِ اللَّاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكونُ وأشنَعُه[3].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ علي البيضاويّ: 549/8.
(2) ابن القيم، إعلام الموقّعين: 128/1.
(3) ابن القيم، الفوائد، ص: 101، 102.

معنى اجتماعِ الكافِ مع لفظِ (مثل) في: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ﴾:

المبالغةُ في ذمِّ المكذِّبين بإدخالِ أداةِ التَّشبيهِ على مايدلُّ على العجبِ والغرابةِ

الكافُ في هذا الموضع هي أداةُ تشبيهٍ، أمَّا لفظ المثلِ؛ فهو الأمرُ الغريبُ العجيبُ، فحينما دخلت الكافُ على لفظ (مَثَل) بتحريك الثَّاءِ المثلَّثةِ، أبانت عن أنَّ المرادَ تشبيهُ حالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ بحالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، لذا اجتمعت الكافُ مع (مثل)، فكأنَّ حالَ المتلبِّس بالحقِّ المنسلخِ عنه يدعو للعجبِ والغرابةِ، فهو في هذا الفعلِ العجيبِ الغريبِ، يشبهُ في الغرابةِ حالَ ذلك الكلبِ اللَّاهثِ على الدَّوامِ؛ فهذا تشبيهُ قصَّةٍ بقصَّةٍ.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾:

الإفصاحُ عن دوامِ اتِّصافه بهذهِ الحالِ الخسيسةِ، واستمرارهُ عليها

الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصيحةٌ، تفصحُ عن حالِ هذا المتَّبع لهواهُ ومِثالِهِ، وإيثارُ الجملة الاسميَّة بدل الفعليَّةِ في هذا المثالِ، بأن يُقالَ: (فصار مثله كمثل.. إلخ)، للإيذانِ بدوامِ اتِّصافه بتلك الحالةِ الخسيسةِ، وكمالِ استمرارِهِ عليها[1].

تقييدُ حالِ الكلبِ بجملةٍ شَرطيَّةٍ ﴿إِن تَحْمِلْ﴾، ودلالةُ الحملِ عليهِ:

التَّقييدُ بأقبحِ الأوصافِ يمحِّضُ الأسلوبَ للتَّقبيحِ، تطلُّبًا لسرعةِ الإقلاعِ عنها

جملةُ: ﴿إِن تَحْمِلْ﴾ شرطيَّةٌ في موضع الحالِ، والمعنى: (لاهثًا) في الحالين، ذليلًا دائمَ الذِّلَّة[2]، وقد ضربَ اللهُ ﷻ هذا المثلَ للكافرِ الَّذي إن وُعِظَ وزُجِرَ؛ نفرَ وكفرَ، وإن تُرِكَ أو رُفِقَ به؛ استكبرَ وكفر، فهو مع العظةِ والتَّذكرةِ ضالٌّ معرضٌ، ومع التَّركِ ضالٌّ معرض، وكذلك الكلب حالهُ تخالفُ سائر الحيوانِ؛ لأنَّ كلَّ ما يلهث من الحيوانِ، فإنَّما يلهث لمرض وتعبٍ، وكلالٍ وعارضٍ، يزولُ اللَّهثُ بزوالِهِ، والكلبُ يلهثُ في جميع حالتِهِ؛ في صحَّتِهِ ومرضِهِ وراحتِهِ وكلالِهِ وريِّهِ وعطشِهِ، فلا مثالَ لمن ذكرَ اللهُ حالَهُ من الكفَّارِ من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 292/3.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 178/2، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 433/3.

جميعِ الحيوان إلَّا الكلبُ[1]، فليس لشيءٍ من الحيوانِ حالةٌ تصلحُ للتَّشبيه بها في الحالتين غيرَ حالةِ الكلب اللَّاهث؛ لأنَّهُ يلهثُ؛ إذا أُتعب، وإذا كان في دعةٍ، فاللَّهثُ في أصلِ خلقتهِ[2].

دلالةُ الخطابِ في فِعلَي الشَّرْط (تحمل) (تترك):

المَثَلُ صالحٌ لكلِّ من لَهُ حَظٌّ مِنَ الخطابِ، ممَّن شابَهَ حال هذا الرَّجلِ

الخطابُ في فِعْلَي الشَّرط لكلِّ أحدٍ ممَّن له حَظٌّ من الخطاب، فإنَّه أَدْخَلُ في إشاعةِ فظاعة حالهِ، وهُما تفصيلٌ لما أجملَ في المثال، وتفسيرٌ لما أبهمَ[3]، " وصغارُ الهممِ، تراهم كاللَّاهثِ من الإعياءِ والتَّعبِ، وإن كان ما يعنونَ به، ويحملونَ همَّه حقيرًا لا يتعب، ولا يعيي، ولا ترى أحدًا منهم راضيًا بما أصابَهُ من شهواتِهِ وأهوائِهِ، بل يزيدُ طمعًا وتعبًا، كلَّما أصابَ سَعةً، وقضى أربًا"[4].

دلالةُ تقديمِ الحملِ على التَّركِ:

تقديمُ الحالِ المعهودةِ للَهثِ الحيوانِ، وذلك عند تحريكِهِ وتهيُّجِهِ

في قوله تعالى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ قُدِّمَ الحمْلُ على التَّرك، والحملُ على الشَّيءِ: قصده على وجهِ الطَّردِ[5]، وقُدِّم الحَمْلُ؛ لأنَّ سائرَ الحيوانِ لا يكونُ منه اللَّهثُ إلَّا إذا حُرِّكَ، وهُيِّجَ وطُرد، فإنْ لهثَ ظُنَّ أنَّ لهثَهُ لما حاول من ذلك التَّعب، فقُدِّمت الحال المعهودة[6]، وأُخِّر الأغربُ، وهو التَّرك الَّذي يجعلُ الكلبَ بها مباينًا لكلِّ الحيواناتِ.

بلاغةُ كمالِ الاتِّصال بين الآيتين:

بيانُ ما سبقَ في تشبيهِ المُكذِّبِ بالكلبِ وأحوالِهِ

قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، جملةٌ مُبَيِّنةٌ لقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: ذلك التَّمثيلُ مَثَلٌ للمُشركينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ، وهو تَشبيهٌ بليغٌ؛ لأنَّ حالةَ الكَلبِ المُشبَّهِ

(1) الباقلاني، الانتصار للقرآن: 750/2.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 177/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 106/5.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 342/9.
(5) الجرجانيّ، درج الدّرر في تفسير القرآن العظيم: 710/1.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 124/2.

شَبيهةٌ بحالِ المُكَذِّبين، وليستْ عَينَها[1]، وفيه تعميمٌ بعد تخصيصٍ، وهو تأكيدٌ لكونِهِ مثلًا سائرًا في كلِّ حالةٍ تشبه هذه الحالةَ المذكورةَ، وفي هذا توسيعٌ لآفاق إطلاق المثلِ زمانًا ومكانًا وحالًا، فتلك الصِّفةُ الخسيسةُ الدَّنيئةُ، المذكورةُ في المنسلخِ عن آياتِنا، صفةٌ ليست خاصَّةً به، بل هي صفةٌ عامَّةٌ قائمةٌ بجميع القوم الَّذين كذَّبوا بآياتِنا من اليهودِ والمشركين وغيرهم، بعد أن علِموا بها، وعرفوها، فحرَّفوا، وبدَّلوا، وكتموا صفةَ محمَّدٍ ﷺ، وكذَّبوا بها، فعمَّ هذا المثلُ جميعَ من كذَّبَ بآياتِ اللهِ تعالى وجحدَها؛ فوجهُ التَّمثيلِ بينَهم وبينَ الكلبِ اللَّاهِثِ: أنَّهم إذا جاءتهمُ الرُّسل ليهدوهم؛ لم يهتدوا، وإن تركوهم؛ لم يهتدوا أيضًا، بل هم ضُلَّالٌ في كلِّ حالٍ[2]، وفي كمال الاتِّصال هنا إيجازٌ وإعجازٌ، واكتفاءٌ بمثلٍ واحدٍ للجميعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَّٰلِكَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ مثلَ المكذِّبينَ الجاحدينَ مثلٌ بعيدُ الشَّأنِ في الغرابةِ

الإشارةُ في قولِه: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ إلى وصفِ الكلبِ، أو إلى المنسلخِ من الآياتِ، أي: ذلك المثلُ البعيدُ الشَّأن في الغرابةِ، مثل القومِ الَّذين كذَّبوا بآياتِنا من الجاحدينَ المستكبرينَ المنسلخينَ عنِ الهُدى، بعد أن كانَ في حوزَتِهم[3]، فاستخدَمَ اسمَ الإشارةِ الدَّالَّ على البُعدِ، دلالةً على غرابةِ المشارِ إليهِ.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱقْصُصِ﴾:

تعظيمُ شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في مأثورِ الكَلامِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱقْصُصِ﴾ فصيحةٌ، وهي لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا تحقَّقت أنَّ المثلَ المذكور مثلُ هؤلاءِ المكذِّبين، فاقصصْهُ عليهم[4]، والقصصُ مصدرٌ بمعنى اسم المفعولِ، واللَّام فيه للعهدِ، أي: قصصَ ذلك الرَّجلُ الَّذي تُشبهُ حالُهُ حالَ المكذِّبين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 179/9.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 233/10.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 436/5.
(4) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 495/3.

بآياتنا أو القصص المذكورةِ على اليهودِ، فإنَّها نحو قصصِهم[1]، وهذا يدلُّ على تعظيمِ شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في تأثيرِ الكَلامِ وفي الإقناعِ، وكونِه أقوى مِن سَوقِ الدَّلائلِ والحُجَجِ المجَرَّدةِ[2].

دلالةُ قولِهِ: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾:

القَصَصُ وضربُ الأمثالِ، لهما أثرٌ كبيرٌ على التَّفكُّرِ والموعظةِ

قولُه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، تنويهٌ بالقِصَّةِ المُمَثَّلِ بها، يشمَلُها وغيرَها مِن القَصَص الَّتي في القُرآن، فإنَّ في القَصَصِ تفكُّرًا ومَوعظةً، فيُرجى منه تفكُّرُهم ومَوعِظَتُهم، لأنَّ للأمثال واستحضارِ النَّظائرِ شأنًا عظيمًا في اهتداءِ النُّفوس بها، وتقريب الأحوال الخفيَّةِ إلى النُّفوس الذَّاهلة أو المتغافلة[3].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

إشـارةٌ إلى تعظيمِ شأنِ التَّفكُّرِ، وأنَّهُ مبدأُ العلمِ وسبيلِ الوصولِ إلى الحقِّ

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: رجاء أن يتفكَّروا فيه، فيحملُهم سوءُ حالهم، وقُبْحُ مثلهم على إطالةِ التَّأمُّل، والتَّفكُّر في المخلصِ ممَّا هم فيه، والنَّظرِ في الآيات بعينِ البصيرةِ لا بعينِ الهوى والعداوةِ، وفيها إشارةٌ إلى تعظيمِ شأنِ التَّفكُّر، وأنَّه مبدأُ العلم، والسَّبيل للوصولِ إلى الحقِّ، ومن ثَمَّ حثَّ اللهُ عليه في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه[4]، وأسلوبُ التَّرجِّي هنا ليس على بابِهِ، وإنَّما خرجَ من التَّرجِّي إلى التَّعليل، ليجعلَ سوقَ القصصِ علَّةً للتَّفكُّرِ المؤدِّي إلى الهدايةِ على سبيلِ الرَّجاءِ، أو إلماعًا إلى أنَّ سَوقَ القصص مُوصلٌ إلى العبرةِ، أو يكون المعنى: ليكون حالهُم حالَ من يُرجى تفكُّرُه.

بلاغةُ أسلوبِ التَّذييل في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

الغرضُ من سوقِ القصصِ وضربِ الأمثالِ إثارةُ التَّفكُّرِ

وقعتِ الجملةُ ممَّا قبلَها موقع التَّذييلِ المُلفت إلى العبرةِ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 178/2، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 436/5، ومحمّد ثناء الله المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 433/3.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 342/9، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 179/9.

(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9، ويُنظَر: رشيد رضا، تفسير المنار: 342/9.

سياقِ القصَّةِ السَّابقةِ، وكلُّ قصَّةٍ في القرآنِ الكريمِ، لبيانِ الغرضِ من سوقِ القصصِ وضربِ الأمثالِ، وقد جاء التَّذييلُ بمنزلةِ التَّعليلِ لما سبقَ، كشفًا عن المنهاجِ القرآنيِّ في الخطابِ الدَّاعي إلى التَّفكُّرِ، كما أنَّ فيه كشفًا أنَّ للأمثالِ في استحضارِ النَّظائرِ شأنًا عظيمًا في اهتداءِ النُّفوسِ بها، وتقريبِ الأحوالِ الخفيَّةِ، لما في التَّنظيرِ بالقصَّةِ المخصوصةِ من تذكُّرِ مشاهدةِ الحالةِ بالحواسِّ، بخلافِ التَّذكيرِ المجَرَّدِ.

مرجعُ الضَّميرِ ودلالته في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾:

الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يمكنُ أن يكونَ مخصوصًا، ويكونُ المرادُ به أهلَ مكَّةَ، أو المراد به اليهود الحاضرين في عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ويمكنُ أن يكون عامًّا لكلِّ من يأتي منه التَّفكُّرُ؛ وهذا التَّنوُّعُ في المرجع يُخصب الدَّلالة ويُثريها، ولا يمنعُ الجمعَ بين الرَّأيين، فيكونُ خطابًا خاصًّا حالَ الخطابِ به، ويكون عامًّا في كلِّ حالٍ مشابهٍ.

تنوُّعُ المرجعِ ثراءٌ في المعنى، وقوَّةٌ في الدَّلالَةِ

دلالةُ التَّعبير بجملةً فعلُها مضارعٌ في خبرِ (لعلَّ):

وقعَ خبرُ (لعلَّ) جملةً فعليَّةً فعلُها مضارعٌ، وهو: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للتَّأكيد على ما في ضرْبِ الأمثالِ وسوقِ القصصِ من الإعانةِ على تجدُّدِ التَّفكُّرِ وإعادة التَّفكيرِ؛ هديًا للرَّشادِ، وإعانةً على الإرشادِ، وزجرًا عن الغوايةِ والضَّلالِ، كما أنَّ الختمَ بالتَّفكُّرِ هو الأنسبُ، والأبرُّ بسياقِ ضرب الأمثالِ، وسوقِ القصصِ.

التَّفكُّرُ الدَّائمُ المتجدِّدُ، خيرُ عونٍ على الوصولِ إلى الرُّشْدِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَتَفَكَّرُونَ ويَتَذَكَّرُونَ:

التَّفكُّرُ تَصَرُّفُ القلبِ بالنَّظرِ في الدَّلائلِ، ومعاني الأشياءِ لِدَرْكِ المطلوبِ[1]، وهو سراجُ القلبِ يرى به خيرَهُ وشرَّهُ، ومنافعَهُ ومضارَّهُ،

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 63، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 121.

الـتَّـذكُّـر ثـمـرةُ التَّفكُّرِ، فإذَا فَكَّرَ القلبُ؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّرَ؛ تَذكَّر

وكلُّ قلبٍ لا تفكُّرَ فيه فهو في ظلماتٍ يتخبَّطُ[1]، وفي القرآنِ الكريمِ يأتي طلبُ التَّفكُّرِ إمَّا بضربِ مَثَلٍ حتَّى يتأمَّل الإنسانُ هذا المثلَ، وإمَّا يكون جوابًا عن سؤالٍ حتَّى يتفكَّرَ في الإجابةِ عنهُ، قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]، أمَّا التَّذَكُّر؛ فهُوَ محاولةُ النَّفسِ استرجاعَ مَا زَالَ من المعلومات[2]، ويكونُ التَّذكُّر للاتِّعاظ، وأخذ العبرةِ، قال تعالى: ﴿*وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥١﴾ [القصص: 51]، والتَّفكُّر والتَّذكُّر أصلا الهُدى والفلاح، وهُما قُطْبا السَّعادة، إذ التَّفكُّرُ: طلبُ القلبِ ما ليس حاصلًا من العلم، والتَّذكُّر: استرجاعُ مازالَ عن القلبِ، والمتفكِّرُ ينتقلُ من المقدِّمات والمبادئ الَّتي عنده إلى المطلوبِ الَّذي يريدُه، فإذا ظفر به؛ تحصَّل له تَذَكُّرٌ به، وأبصر مواقعَ الفعلِ والتَّركِ، وما ينبغي اجتنابُهُ، فحينها يكون التَّذكُّرُ؛ فالتَّذكُّر هو مقصودُ التَّفكُّرِ وثمرَتُهُ، فإذَا فَكَّرَ القلبُ؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّرَ؛ تَذكَّر[3].

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 63.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 67.
(3) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 214/1.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»